كلمة التحرير

تمرّ أمتنا في هذه الأيام بظروف تتّسم بالاضطراب الباعث على الحيرة والقلق، فمن متفائل يقول بأنّ هذا الليل لابد أن يعقبه فجر؛ ومن متسائل أليس لهذا الليل الطويل من آخر! ومن قائل إنّ الواقع القائم لا فكاك منه، وتيارات العولمة الهادرة لا قبل لأحد في مواجهتها، فلنتكيف معها ولنوجه أشرعتنا في الاتجاه الذي تقودنا إليه. ويبدو أن الأمّة قد افتقدت البوصلة الهادية إلى المنهج السليم الذي يمكنها من استعادة فاعليتها وقدرتها وإرادتها وتتمكن من ثمّ من تقرير مصيرها بنفسها. وهذه الخصائص الثلاث الفاعلية والقدرة والإرادة شروط أساسية لتجاوز محن كهذه، بكل ما لها من انعكاسات وتشعبات؛ فإذا لم تستعد الأمة فاعليتها وقدرتها وإرادتها ومن ثم تقرير مصيرها بنفسها، فإنها بمقتضى قوانين هذا الكون وقواعد الاجتماع تكون قد بلغت سنّ الشيخوخة وحقت عليها كلمة الاستبدال. وهذه الأمة ارتبطت في تكوينها وفي بنائها وفي سيرورتها التاريخية بمصادر هداية خالدة ثابتة، قادرة عندما يُحسن الرجوع إليها أن تقدم سائر المؤشرات المطلوبة لاستعادة الفاعلية، وإعادة بناء القدرة، وتحقيق الإرادة التي تمكن من استيفاء بقية الشروط والصفات التي يتوقف عليها النهوض الحضاري والعودة إلى حالة الشهود. وهذه المصادر هي كتاب الله وبيانه من سنة نبيّه الثابتة الصحيحة. ولكنّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؛ أي أن فاعلية القرآن لا تتحقق من مجرد وجوده بين ظهرانينا، ولكنها تأتي من الإنسان القارئ المتدبر، فالبشر هم الذين يقرؤون ويتدبرون ويعكفون ويتفكرون ويرتلون، ليصلوا إلى كيفية الإمساك بمقود واقعهم وتوجهه نحو التغيّر والصلاح.

وتشنّ اليوم على القرآن المجيد معركة لا هوادة فيها؛ معركة تعيد إلى الأذهان معارك مشركي قريش وجيرانهم من أهل الكتاب المبدل المحرف ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: 26)، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: 5)، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل: 103) ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ.﴾ (الشعراء: 210-211) ولذلك نُطالب اليوم بالإمعان في هجره وتجاوزه إن أمكن، وإلاّ فلا بد من إدخال تعديلات وتغييرات وحذف بعض الآيات وإعادة تأويل

البعض الآخر، لكي تفقد الأمة المصدر الوحيد الكفيل بإعادتها إلى الجادّة وتزويدها بنيّر الأفكار ومستقيم التوجهات عندما تلتبس السبل وتحتار القلوب. فهو الحصن الآخر والقلعة التي إن قدّر للمسلمين الانفصال عنها لا سمح الله تكون نهايتهم بالمعنى الشامل الكامل.

ولا يجدي أن يكون الرجوع إلى القرآن من غير منهج واضح يستمد صلابته وصحته من منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلاوة القرآن وترتيله، ومجاهدته به، فذلك لن يعود على المسلمين بطائل. من هنا فإن أي مشروع يمكن أن يطرح لهذه الأمة باعتباره مشروع خلاص بعيداً عن هداية هذا الكتاب الكريم وتسديده وترشيده، فإنه مشروع محكوم عليه بالفشل. فما هو المشروع الذي يمكن أن يكون مشروع إحياء قرآني في عصرنا هذا ولمواجهة مشكلاتنا هذه؟

إنه باختصار مشروع لابد أن يكون قادراً على إعادة تنزيل القرآن على بيئتنا المعاصرة، وقراءة مشكلاتنا والتحديات التي تواجهنا، قراءة تسمح بدقة ذلك التنزيل ليعاد توصيف الأشياء والأشخاص وبيان الوقائع كما كان القرآن الكريم يفعل في تنزله الأول على رسول الله صّلى الله عليه وسلم. فإذا نظرنا في ذلك الواقع الأول نجد أن الذين تقبلوا القرآن وحملوه كانوا من أكثر الناس معاناة في ذلك الواقع وأكثرهم فهماً لتفاصيله، وما فيه من مشكلات، والقوى المتحكمة فيه وعناصر الضعف والقوة في كل منهما، فحين يتنزل القرآن كانوا يتقبلونه كما تتقبل الأرض الميتة الجرداء عذب المياه وقطرات الغيث، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

وهكذا لابد أن نعيد تنزيل القرآن الكريم على واقعنا، ولا بد لحملة هذا القرآن أن يفهموه فهماً سليماً ويدرسوه دراسة عميقة ويدركوا القوى المتحكمة في هذا الواقع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وإعلامياً وفنياً، ويميزوا عناصر القوة والضعف، وآنذاك فقط يمكن لحملة القرآن الاهتداء بهدايته واستنزال أنواره، وتفسير الوقائع بمقتضاه. وآنذاك أيضاً يدركون عناصر ضعفهم وعناصر قوتهم وما تحتاجه معاركهم الهائلة من استعداد وإعداد لإحداث التغيير بهذا القرآن ومجاهدة الناس به جهاداً كبيراً.

وليس لقيم القرآن والأمة التي يخرجها هذا القرآن والحضارة التي يبنيها، من بديل لتخليص عالمنا مما يعاني منه؛ فالأمة المهيمنه اليوم على مقدرات العالم والحضارة التي تنشرها، والقيم التي تحملها، إنما تتخبط في

التيه والحيرة، وتنزلق أقدامها نحو الهاوية. وأمثلة الانحراف في مسيرة هذه الحضارة كثيرة، ضلال في العقيدة، وانحراف في القيم، وممارسة للظلم والغرور والاستكبار... وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً!

فالعقيدة التي تسير أمة الهيمنة والاستكبار العالمي اليوم هي عقيدة تثليث وحلول تتحدث عن ثلاثة تعبر عن واحد، وخالق حل في مخلوقه، ورب ضحى بابنه الوحيد ليصلب بيد أعدائه للتكفير عن خطايا البشر، والبشر كلهم في نظر هؤلاء يعيشون في الخطيئة الأولى التي ارتكبها أبوهم آدم. ولعلّ في هذا المعتقد تفسيراً لتلك القوة العارمة ضد الشعوب الأخرى، والجرأة القاتلة في نهب مقدراتها، فهي أصلاً شعوب خاطئة تتمزع في الخطيئة، وحملة الصليب يحاولون تخليصها من الخطيئة. فإذا قاوم هؤلاء المساكين فإنهم نماذج ظلام تقاوم حملة النور، ونماذج ضلال تقاوم الهداية وأصحابها، فلا يضير أن يُزاد في كمية التهديد والاضطهاد حتى تتخلص نفوس هؤلاء وتتطهر من الخطيئة.

وفي جانب القيم الخلقية يتم التشريع لتسويغ الانحراف الجنسي واعتباره جزءاً من الطبيعة البشرية يتعلق بجينات الإنسان وطبيعة خلقته، ولا يجوز الإشارة إليه بصفة سلبية، أو الاعتراض على التشريع لممارسته، وأقل ما يقال هو أن الانحراف والسلوك السوي سواء بسواء. فالعلاقة الجنسية بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة ليست مجرد علاقة يسمح القانون بإقامتها لاعتبارات مدنية، وإنما هي زواج لا يقل بحال عن زواج الرجل بالمرأة. هذا الزواج المِثْلِيّ هو ابتكار وإبداع من هذه الحضارة العوراء الضالّة لم يستطع أن يصل إليه قوم لوط، فقوم لوط حين واجههم لوط بأنهم يأتون الفاحشة –ما سبقهم بها من أحد من العالمين– لم يسموا ذلك زواجاً. أما هؤلاء فقد تجاوزوا ذلك وأقروه في بعض الولايات والمدن. أما الذين يدعون الإصلاح ويستنكرون الزواج المثلي، فإن غاية سعيهم هو التأكيد على تعريف الزواج بأنه علاقة بين رجل وامرأة أو تعاقد بينهما، أما أن يتعاقد الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة للعيش معاً وفق عقود مدنية يحددون فيها من الالتزامات ما يحددون –دون أن تسمى هذه العقود زواجاً– فإن ذلك لا يمثل مشكلة. وذلك منتهى التبسيط وغاية السذاجة في فهم القضية أو عرضها فضلاً عن معالجتها! وما لم يتمّ بناء المعتقد بشكل سليم الذي يعيد للإنسان كرامته الإنسانية، ويتم تفعيل هذه العقيدة في سائر مفردات الحياة وبكل جوانبها، فإنه

لا أمل في إصلاح هذه الشذوذات ووضع ضوابط للسلوك السويّ، بل إنّ ما تشير إليه اتجاهات الرأي العام، لا يبشر بخير وينذر بمزيد من التكريس والترسيخ لصور الشذوذ والانحراف.

إنّ القرآن الكريم يوضح لنا أن الأمم حينما تبدأ بمقارفة هذه الخطايا والولوغ في كل هذه الفواحش فإنها تكون قد سلكت سبيلها نحو التدهور والهلاك. قد يأخذ ذلك وقتاً ولكن النتيجة الحتمية هي الوصول إلى حالة الاستبدال، فماذا على أهل القرآن والإيمان أن يفعلوا؟

إن عليهم أن يؤسسوا لنموذج الطهر، لنموذج الصلاح، لنموذج الأمة المقتصدة الشهيدة على الناس، إن دور هذه الأمة اليوم–أمة القرآن–هو دور لا ينهض بأعبائه إلاّ المرسلون؛ أو أمة قادرة على تبني رسالات الأنبياء وحملها إلى الناس وإعادة بناء نماذج الحياة وفقاً لهديها. وأمام هذه الأمة طريقان لا ثالث لهما: فإما أن تقوم بهذا الدور وتحسن أداءه وبالشكل الذي حدّده الله سبحانه، وإما أن يكون مثلها كمثل الذي قال الله فيهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.﴾ (الجمعة: 5) فإذا رفعنا كلمة التوراة ووضعنا بدلها كلمة القرآن فإن النتيجة واحدة وذلك مصير كل أمّة تتنكر لرسالتها وتتخلى عن أداء واجبها.

من هنا فإن أمتنا أحوج ما تكون في أيامها هذه إلى مشروع قرآني متكامل يصدر عن القرآن وإليه يرد، وإن كتّابنا ومفكرينا ليحملون مسؤولية عظمى في هذا المجال تلزمهم بأن يعطوا دراسات الواقع ودراسات القرآن وكيفية الربط بين القرآن والواقع المعيش كل جهودهم وقدراتهم، حتى يهيئ الله لهذه الأمة أمر رشد يجعلها ذات فاعلية وقدرة وإرادة؛ ﴿...وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ. أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.﴾ (الروم: 4–9)